

من التحامل ، وجعلوا جل اعتمادهم على الروايات النصرانية القديمة التي تفيض بمختلف الأ كاذب والتهم ، ولم يفكروا في مراجعة المصادر الاسلامية والانتفاع بها ؛ ذلك أن اسبانيا النصرانية أصدرت منذ غداة ظفرها حكما على القلوب ، ولم ترد بعد ذلك أن تسمع صوتاً للأندلس الذاهبة ، أو أن تراجع ذلك التراث الذي تعتبره رجساً ، وترى فيه عنوان عصور مشنومة ،

ملينة بالحن القومي

وبهذه الروح كتب أكبر المؤرخين الأسبان تاريخ اسبانيا ، فكتب ماريانا في عصر شارلوكان تاريخ اسبانيا العام ، وخصص منه مجلدن كبيرين لتاريخ الأندلس ، ولكنه كان متحيزاً متحاملاً يفتق الطاعن والتهم على العرب وعصور الاسلام ؛ وحذا حذوه من جاء بعده من المؤرخين ؛ وطبعت مؤلفاتهم جميعاً بهذا الطابع الفرض ؛ وكانت السياسة الاسبانية تحرص دائماً على حجب آثار العصر الاسلامي ، وتخفيها عن كل باحث ومتطلع ، كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الاسلامي في تفكير اسبانيا النصرانية ، وهي لم تدخر وسماً في مطاردة هذا الروح وقتله ؛ ولبثت الآثار الاسلامية عصوراً مقبورة في أقبية الأسكوريال المظلمة ، وكانت حتى أواخر القرن السابع عشر تبلغ زهاء عشرة آلاف مجلد جمع معظمها أيام سقوط غرناطة ، وضمت اليها بعد ذلك نحو ثلاثة آلاف مجلد كانت للسلطان زيدان السعدي ملك مراكنس ؛ وكانت مشحونة في مركب مغربي لتنتقل إلى بعض ثغور الغرب خوفاً على ضياعها أثناء الفتنة ، فأمرتها بعض المراكب الاسبانية وحلت شحنتها إلى اسبانيا (١) ؛ وفي أواخر القرن السابع عشر أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس حنة أليمة ، إذ شبت النار في الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكثر الفريد ، ولم يبق منه سوى ألفين . عندئذ استغاثت الحكومة الاسبانية من سبائها ؛ وحررت ذهنها بمض الشيء من ذلك التعصب العميق الذي صرفها عصوراً طويلة عن العناية بهذا التراث ، واستدعت من رومة جبراً شرقياً وعلامة لتويماً كبيراً هو ميشيل الفيزيري اللبناني الذي يعرف في الغرب باسم

## تطور العقلية الاسبانية

في تقدير تراث الأندلس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في أوائل سنة ١٩٢٩ ، احتفلت جامعة غرناطة بذكرى الخلافة الأندلسية لمناسبة مضي ألف عام على قيامها (١) فكان أول حادث رسمي من نوعه يتم عن تطور عميق في تقدير اسبانيا النصرانية لتراث الأندلس المسلمة

وتاريخ الاسلام في الأندلس مرحلة باهرة في تاريخ اسبانيا للقوى ، بل أعظم مراحلها وأسطعها ، فقد لبث العرب في اسبانيا زهاء ثمانية قرون أنشأوا فيها أعظم حضارة عرفت في العصور الوسطى ، وكانت وحدها مدى هذه العصور مورد النور والرفان لأمة الشمال ؛ وأخرج المسلمون من اسبانيا بعد أحقاب من الكفاح المتواصل ، فتركوا في اسبانيا طابعهم الخالد ؛ وما زالت آثارهم الباقية تشهد بنظمة عصرهم وحضارتهم ، وما زالت الحياة الاجتماعية الاسبانية تتم في كثير من نواحيها عن تأثير العرب ورسومهم وتقاليدهم

ولكن اسبانيا النصرانية لم تتفتح بسحق الأندلس المسلمة ، واستعملة آخر بقعة للإسلام في اسبانيا ، بل رأت غداة ظفرها أن تطارد الاسلام بكل ما وسعت ، وأن تححو كل رسومه وآثاره من صفحة حياتها ، وأن تدفن ذلك الماضي المجيد إلى الأبد ، وأن تعتبره حنة قومية نزلت بها ، وأن تححوه من صحف تاريخها القومي ؛ وتأثر التفكير الاسباني بأهواء السياسة المتعصبة ، فأشبع بهذه الروح المحجفة ؛ ولبث الأدب الاسباني عصوراً يشيع بلغائه المتواصلة عصر الاسلام وتراثه ، وكل ذكرياته ؛ ولم ينج التاريخ من هذه النزعة المفرضة ، فطنى التعصب على المرحلة الاسلامية من تاريخ اسبانيا القومي ؛ وكتب المؤرخون الأسبان تاريخ العرب في اسبانيا بروح عميق

(١) اتخذ عبد الرحمن الناصر سنة الخلافة في سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) وفتح في برطبة خلافة أميرة ، إلى جانب خلافة بنفاد في المرق

(١) وقع هذا الحادث في أواخر عهد فليب الثالث ملك اسبانيا حوالي سنة ١٦٢٠ م

الروايات العربية دون تمحيص ، ولأنه يقع في كثير من الأخطاء التاريخية التي ترجع في الغالب إلى عدم الدقة في النقل ؛ ومع ذلك فإنه يمتاز بالصراحة الجمة حتى أن كوندى يذهب في كثير من المواطن إلى إصدار أشد الأحكام على أمته ومواطنيه خصوصاً في الحوادث التي اقترنت بسقوط غرناطة ، واضطهاد الأسبان للعرب ومطاردتهم وإرغابهم على التنصير ، ثم إخراجهم بعد ذلك من أوطان آبائهم وأجدادهم في غمر من الفظائع والدماء ؛ وأهمية مؤلف كوندى في أنه يمرض للغرب لأول مرة أقوال الرواية العربية مستمدة من مصادرها الأصلية ، ومنها تعرف وجهة النظر الأندلسية في كثير من الحوادث والشؤون

وكان صدور مؤلف كوندى حادثاً فريداً في كتابة التاريخ الأسباني ، وكان أول مؤلف من نوعه يسجل كلمة الأندلس في المرحلة التي قطعها من تاريخ اسبانيا القومي ، ويسجل في نفس الوقت بدء عهد جديد من حرية البحث والتقدير ؛ ومن التريب أن كتاب كوندى صدر في نفس الوقت الذي صدر فيه أثر تاريخي آخر كان لصدوره أعظم وقع في اسبانيا وفي أوروبا ، وهو كتاب الدون انتوينو لورنتي عن تاريخ محاكم التحقيق (التفتيش) الأسبانية ، وعن نظمها واجراءتها الدموية ، وفيه يورد مؤلفه طائفة عظيمة من الوثائق الرسمية التي تكشف عن فظائع هذه المحاكم الشائنة ، وخصوصاً في مطاردتها للعرب والعرب المنتصرين ، ويورد في نفس الوقت طائفة كبيرة من القضايا والمحاكم الخاصة بالعرب المنتصرين مستمدة من وثائقها الأصلية ؛ وكان كتاب لورنتي فتحاً جديداً في هذه الناحية من تاريخ العرب المنتصرين . وكان لصدوره وقع عظيم في أوروبا ، خصوصاً وأن مؤلفه من أكبر رجال الدين والكنيسة ، وقد لبث أعواماً طويلة سكرتيراً عاماً لديوان التحقيق (التفتيش) واستطاع أن يستخرج وثائقه من محفوظات الديوان الرسمية ذاتها

وفي أواسط القرن التاسع عشر عنى العلامة المستشرق الأسباني دون بلسكوال دي جاينجوس بدراسة المصادر العربية في تاريخ الأندلس ، وقام بترجمة القسم الأول من كتاب «فتح الطيب» للمقرئ إلى الانكليزية مع بعض التصرف وسماه «تاريخ الدول الإسلامية في اسبانيا» *History of Mohamedan Dynasties in*

(كازيري) Casiri ، وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ووضع فهرس جامع لها ؛ فلبث الفزيري أعواماً طويلة يدرس وينقب في تلك المخطوطات حتى أتم المهمة ، وأخرج في سنة ١٧٦٠ باللاتينية فهرسه الجامع بعنوان «المكتبة العربية الاسبانية في الأسكوريال» *Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis* وصدر كازيري مجمه بمقدمة طويلة شرح فيها قيمة المخطوطات العربية وأهميتها ، ونقل في فهرسه نبذاً كثيرة من بعض الآثار الهامة ؛ فأنار ظهور هذا الفهرس الجامع لأول مرة اهتماماً كبيراً في دوائر البحث والتفكير ، ولفت نظر المؤرخين الاسبان إلى تلك الناحية الهامة من تاريخ اسبانيا القومي ، وإلى تلك المراجع النفيسة التي تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس وأحوال المجتمع الاسلامي ؛ وعن طائفة من الباحثين في أواخر القرن الثامن عشر مثل أندريس وماسدي يبحث المصادر العربية والانتفاع بها ، والاقتناس منها ؛ وأخرج أندريس كتابه عن (أصول الأدب) وأخرج ماسدي مؤلفه الجامع عن تاريخ اسبانيا والحضارة الاسبانية *Historia Crítica de Espana y de la Cultura espanola* وفيه بنذشائقة عن المجتمع الاسلامي ونواحي التفكير الاسلامية مستمدة من المراجع العربية ؛ وهكذا بدأ تطور الروح الاسبانية في تقدير التراث الاسلامي ، وظهر صوت الأندلس المسلطة لأول مرة في التواريخ العامة والخاصة

على أن هذا التطور الحمود من التحامل والتعصب إلى جانب الروية والانصاف لم يقف عند هذا الحد ، ففي أوائل القرن التاسع عشر عمد المؤرخ يوسف كوندى أمين مكتبة أكاديمية مدريد إلى دراسة المراجع العربية في الاسكوريال دراسة مستفيضة ورأى أن يكتب تاريخ اسبانيا المسلطة بصورة جديدة هي الصورة التي تقدمها إلينا المراجع العربية ، أو بعبارة أخرى رأى أن يكتب تاريخ الأندلس كما يعرضه تراثها العربي ، وكانت نتيجة هذه الدراسة كتابه الشهير «تاريخ دولة العرب في اسبانيا» *Historia de la Dominacion de Los Arabos en Espana* الذي صدر الجزء الأول منه سنة ١٨١٠ ؛ وتوفي كوندى في نفس العام ، فنشر الجزء الثاني الباقيان من مخطوطاته في العام التالي ؛ وليس مؤلف كوندى قوياً من الناحية النقدية ، لأن مؤلفه ينقل مختلف

بين عالمين

## نظام الطلاق في الاسلام

للأستاذ أحمد محمد شاكر

Spain ؛ وظهرت هذه الترجمة في لندن سنة ١٨٤٠ في مجلدين كبيرين مقرونة بملاحظات ومقارنات نقدية قيمة ؛ ولم تعض أعوام قلائل على ذلك حتى صدرت في ليدن ترجمة فرنسية لهذا القسم الأول من كتاب المقرئ بقلم المستشرقين دوزي ودوجا تحت عنوان « مختارات في تاريخ وآداب العرب في اسبانيا » Analectes sur l'Histoire et la littérature des Arabes d'Espagne

(سنة ١٨٥٥ - ١٨٦١)

وهكذا وقفت اسبانيا ، ووقف العرب ، بمد عصور طويلة من النسيان والتحامل على وجهة النظر الاسلامية في التاريخ الأندلسي ، وسقط ذلك الحجاب الكثيف الذي ضربته السياسة الأسبانية مدى ثلاثة قرون على تراث الأندلس وآدابها ، وتطورت فكرة التاريخ الأسباني ومادته ، وأدرك المؤرخون المحدثون أهمية المرحلة الاسلامية في تاريخ اسبانيا القومي ، وعدلوا كثيراً من الآراء والأحكام المجحفة التي أصدرها المؤرخون القدماء نزولاً على مؤثرات الجهل والتعصب القومي والديني والسياسي

وزي في أواخر القرن التاسع عشر جماعة من أعلام المستشرقين الأسبان يبذلون جهداً عظيماً في نشر مجموعة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التي تحتويها أروقة الأسكوريال ، باسم المكتبة الأندلسية ، وهي مجموعة نفيسة في عشرة مجلدات ، تحتوي على عدة كتب لابن بشكوال ، وابن الآبار ، والضي ، وابن الفرضي ، وأبو بكر الاشبيلي ، وتعليقات وفهارس مفيدة . وقد ظهرت المجموعة بين سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٤ في مدريد وسرقسطة ، وكان الجهد الذي بذل في إخراجها تحية جديدة من اسبانيا الجديدة لتراث العرب والاسلام في الأندلس

وأخيراً توجت تلك الجهود الحرة الموقفة لبحث الصلات والملائق القومية بروح الانصاف والزاهة ، بقيام لجنة غرناطة بالاحتفال بالذكرى الألفية للخلافة الأندلسية وعصرها الباهر ، وهي خطوة كان لها أعظم وقع في اسبانيا وفي العالم الاسلامي وهكذا يتبوأ تاريخ الأندلس وتراث الاسلام في اسبانيامكاته الحقة في التاريخ القومي ، وفي الآداب التاريخية الغربية ، بمد عصور طويلة من التعصب والتحامل والنسيان

محمد هبيرة الله ههانه

منذ بضعة أشهر أخرجت كتابي (نظام الطلاق في الاسلام) فتقبله العلماء الأعلام في مصر وفي سائر الأقطار بقبول حسن والحمد لله ، وأكثروا من الثناء عليه وعلى مؤلفه ، وجاءتني كتب متواترة من كبار علماء الاسلام في الحجاز والهند والعراق والشام وغيرها ، ومن كبار المستشرقين في أقطار أخرى ، ولا أراي أهلاً لكل ما أثنوا به عليّ ، وإنما هو حسن الظن منهم ، وقد أعجزني أن أوفيهم حقهم من الشكر على هذا الفضل الجمّ ، وأسأل الله أن يجزل لهم الثوبة على فضلهم

وفي بعض ما جادت من الكتب أبحاث قيمة من النقد العالي المبني على الحججة والبرهان ، مما يصلح أن يكون مثلاً يحتذى للباحثين المجتهدين ، في دقة النظر ، وعلو الفكر ، وأدب القول ، والتسامي عن العصبية والهوى ، والتزام ما ينصره الدليل الصحيح ؛ وهي الخصال التي نرجو أن يسير على نهجها كل عالم مفيد ، وكل طالب مستفيد ، وخصوصاً في علوم الدين . وهي الخصال التي جاهد أسلافنا في سبيل حمل الناس على الأخذ بها واتباعها ، ثم تبناهم من بعدهم ، فجاهد اخوانى وجاهدت معهم في سبيل ذلك جهادا كثيراً ، منذ نيف وعشرين سنة ، ولا تزال - والحمد لله - نسير على هذا النهج القويم ، والصرط المستقيم

ومما يجب عليّ ، إحقاقاً للحق ، واتباعاً لسبيل الهدى ، أن أفكر فيما ورد على كتابي من اعتراض وقد ، وأعيد النظر فيما اخترتُ ورأيتُ ، وأكشف عن حجة خصمي وعن حجتي ، لي وللتناظرين : فإما اتصرت قول خصمي ورجعتُ عن قولي ، وإما اتصرتُ لقولي وزدته ياناً وتأييداً ، لا أبالي أي ذنبك كان ، وإنما أنا طالب علم ، فأى قول أو رأى نصره عندي الدليل فانه العلم الذي أطلبه وأسئ اليه ، لا أبني به بدلاً